بحث فى الإيمـــان

للأستاذ على الطنطاوى

إلى الأخ البغدادى الذى كتب إلى أمس

كتبت إلى تسألنى عن الإيمان ، وتريد دليلا عقلياً على صفات الله السمعية ، وصورة حسية لما خبر به من المغيبات كالجنة والنار ، والجن والملائكة ، حتى لكأنك تراها بعينك ، وتعرض للقضاء والقدر وتسرد شبهاً عرضت لك تطلب منى ردها ، إلى آخر ما ذكرت فى كتابك من مسائل تنوء بها أكبر الأدمغة البشرية ، وتعجز عن حلها العقول العظيمة ، بَلْهَ عقل مثلى ودماغه . من أجل ذلك أزمعت السكوت عن الجواب ، ثم بدا لى فرأيت الكلام فى هذه المسألة واجباً ، لأن معرفة الله أول مطالب الحياة ، وأسمى غاية لوجود البشر ، ولأن الشباب فى حاجة إلى مثل هذا البحث ؛ ثم إن البحث فى ذاته لذيذ ممتع . فأقدمت على فتح بابه ، وذكرت ما ألهمته فيه

المعارف البشرية

أورد النسفي رحمه الله في أول عقائده هذه الكلمة الجامعة قال : « حقائق الأشياء ثابتة ، والعلم بها متحقق ، وأسباب العلم كثيرة : الحواس السليمة ، والعقل ، وخبر الصادق المعصوم » أى أن المعارف البشرية إما أن تكون مشاهدة محسة تراها ونسمعها ، وإما أن تكون معقولة ندركها بالفكر والقياس الصحيح ، وإما أن تكون منبية علمنا بها من طريق الوحى . أما المحسات فيتساوى فيها الناس والحيوان ، وليس فى إدراكها ميزة للناس ، وإن كان أفقها عند الناس أوسع ، وإدراكهم لها أرق . وأما المعقولات فيستوى فيها الناس كلهم من كل ذى عقل سليم . وأما الإيمان بالمغيبات فهى الميزة التى تمتاز بها عقول المؤمنين الذين يشاركون الناس فى الحس والتفكير ، ويختصون دونهم بالإيمان .

وسنحاول أن ندرس فيما يلى قيمة كل مصدر من مصادر المعرفة الثلاثة .

الحواس

تستطيع أن تشك فى كل شئ ، ولكنك لا تستطيع أن تشك فى شىء تراه أو تلمسه ، لأن الحس أصح طرق المعرفة وأدناها ، ولأنك إذا قلت : هذا الشئ (محسوس) ، تكون قد عبرت بأبلغ تعبير عن الثقة بوجوده ، والاطمئنان إليه ، والحواس هى طريق المعرفة الأولى ، والنوافذ التى تطل منها النفس على العالم الخارجى ، فلو أغلقت هذه النوافذ أمض العالم عدماً . ولو أن رجلاً ولد أعمى أصم لكان عالم الألوان والأصوات (بالنسبة إليه) غير موجود ، ولما استطاع مطلقاً تصور الخضرة والحمرة ...

كل هذا مسلم به ، ولكن هل يحق لنا أن ننكر وجود شئ من الأشياء لأننا لا ندركه بحواسنا ؟ هل يجوز لنا أن نقول إنه ليس فى الوجود ملائكة مثلا ، لأننا لم نر الملائكة ولم نسمع أصواتهم ولم نلمسهم ؟ هل نستطيع أن ننكر الشياطين ؟

وبالعبارة الثانية : هل هذه الحواس كاملة تطلعنا على كل شىء فى الوجود ؟ وهل هى صادقة لا تخدعنا ولا ترينا الشىء على غير حقيقته ؟

إنى أسألك أولا : كم هي الحواس ؟ فتقول إنها خمس . فأسألك : ألا تعرف لها سادسة ؟ فتضحك وتحسبنى أمزح ، لأن الحواس كاملة لا يمكن الزيادة عليها . وأنها مشهورة معروفة من قديم الزمان ، لم يفكر أحد أن بالامكان كشف حاسة سادسة لها .

بينما يعرف صغار طلبة البكالوريا الذين يقرأون علم النفس ، أن هناك حواس أخرى ، وتعرف ذلك أنت إذا دققت فى نفسك وجلت مشاعرك ؛ ألا تشعر بالتعب موجوداً فى عضلاتك عقب المشي الطويل أو الحركة العنيفة ؟ ألا تحس بالجوع والعطش والتهاب الجوف ، وغثيان النفس ؟ فبأى حاسة من الحواس الخمس عرفت ذلك ؟ أبصرته أم سمعته ، أم شممت ريحه أم لمسته ؟ إنك لم تدركه بشىء من ذلك ، بل بحاسة سادسة دعنا نسميها (الحاسة المشتركة) مثلاً . . .

ثم ... ألا تحس وأنت مغمض عينيك بأن يدك ممدودة أو مرفوعة ، وأن كفك مقبوضة أو مبسوطة ؟ إنك لم تراها ، ولم

ركها بحاسة من الحواس الخمس ، وإنما أدركتها بحاسة سابعة نا نسميها (الحاسة العضلية) مثلا ...

وكذلك حسك بالحرارة والبرودة ، فإنها حاسة ثامنة ، سك بتوازن جسمك عند المشي أو الوقوف ؟ بل لقد استطاع لماء أن يكشفوا مركز هذا الحس ، وأن يعلموا أنه في الأذن اخلية ، في مادة كلسية مبلورة ، لو أتلفت في حيوان فقد حسّ وازن وسار مترنحاً كما يترنح السكران . . .

فالحواس ليست كاملة لأن الكامل لا يقبل الزيادة ، وما ت ناقصة فسيظل في الوجود أشياء لا ندركها أو ندركها ندري أننا ندركها

ولنأخذ الكائنات التي ندركها ، هل ندركها كاملة ؟ أنا أرى لوان ولكن هل أراها كلها ؟ هل أرى ما وراء الجدار ؟ هل ر عصفوراً على شجرة من مسيرة يوم ؟ هل أميّز رجلا في حراء على بعد عشرة أميال ؟ وأنا أسمع الأصوات ، ولكن أسمع صوت نملة تسير على التراب ؟

أفيحق لي أن أنكر أن للنملة صوتاً لأني لا أسمع هذا الصوت ؟ أن أجحد ما وراء الجدار لأني لا أبصر ما وراءه ؟ فأنا إذن إك من الكائنات أنواعاً معدودة ، وأدرك من هذه الأنواع دير محدودة

وهذه المقادير التي أدركها ، هل أدركها على حقيقتها ؟ ألا لي حواسي أو تضل ؟ إني أضع أصبعي الوسطى على السبابة ثم ري القلم على باطن الأصبعين فأحس بقلمين ... وأضع العود تقيم في الماء فأراه منكسراً ... وأنظر في الصحراء فأرى الرمال ماً غزيرة . على حين أنه ليس هناك إلا قلم واحد ، وإن العود تقيم يبقى في الماء مستقيما ، وإن رمال الصحراء لا ماء فيها ، لكن حواسي أخطأت وضلت . وانظر أي كتاب من كتب النفس (السيكولوجي) تر من ذلك شيئاً كثيراً ، فإذا كانت ء هي قيمة الحواس ، فهل يحق لنا أن نجعلها وحدها طريق رفة ، وأن ننكر كل أمر لا تقع عليه حواسنا ؟ ألا ننكر سنا قبل كل شيء لأن نفوسنا وأرواحنا لا تدركها حواسنا تعرف ماهيتها ؟

الخيال

وإذا ثبت أن الحواس ناقصة محدودة ، ثبت أن الخيال محدود ، لأن الانسان لا يستطيع أن يتخيل شيئاً جديداً لم يدخل في دائرة الحس ، ولأنه لا عمل للخيال إلا تأليف صور جديدة من الأجزاء القديمة . فالذي نحت تمثال فينوس لم يأت به من العدم وإنما جمع في ذهنه أجمل أنف رآه ، وأجمل فم ، وأجمل عين ، ثم ألّف بينها صورة جديدة لم يدركها الحس بمجموعها ولكنه أدرك مفرداتها على كل حال . والذي صور الحصان المجنح ، أخذ جسم الحصان وجناح الطائر . من أجل ذلك سمى كثير من علماء النفس هذا الخيال جامعاً ، وكرهوا أن يطلقوا عليه لفظ (الخيال البدع) . فكيف إذن تستطيع أن تتصور الجنة أو الملائكة أو الحياة الأخرى وأنت لم تدرك بحواسك أي جزء من أجزائها ؟ إنه ليس في النفس شيء لم يدخل لها من العالم الخارجي ، وأنت لم تعش في الجنة ، فاذا قلت لك مثلا ... إن في الجنة أنغاماً موسيقية عطرة ، أو أن فيها عطوراً لها رائحة خضراء ، فهل تستطيع أن تتخيل هذه الأنغام العطرة ، أو هذه الرائحة الخضراء ؟ هل تقدر أن تتخيل بعداً رابعاً غير الأبعاد الثلاثة المعروفة (الطول والعرض والارتفاع) ؟ هل تتصور مثلثاً ليس له زوايا ، ودائرة ليس لها محيط ؟ كذلك لا تقدر أن تتصور أن لله يدا ليس لها طول ولا عرض ولا جسم ولا صلابة ولا صفة من الصفات البشرية ولا تشبه الأيدي ولا تشاركها إلا في الاسم . ألا تجد نفسك مضطراً إلى التسليم بالعجز والاقرار بأن المستحيل على الخيال البشري الوصول إلى معرفة ذات الله وصفاته الالهية ؟

العقل

تقدم معنا أن الحواس خدعت ، فأحست القلم قلمين ، ورأت العود المستقيم منكسراً ، والسراب ماء . ولكن العقل لم يخدع ، وكان يعلم أنه قلم واحد ، وأن العود مستقيم ، والسراب ليس بماء ، فالعقل إذن أوسع قدرة ، وأصح حكما من الحواس . ولكن أليس لقدرته حدود ؟ هل يقدر العقل على أن يحكم على كل شيء ؟

الجواب : لا . لأن العقل لا يستطيع أن يحكم على شيء ،

أو يدركه إلا إذا حصره بين شيئين هما الزمان والمكان . لذلك يسأل العقل دائماً : متى ؟ وأين ؟ فلو قلت لك : إن حرباً وقعت ولكنها لم تقع اليوم ولا أمس ولا قبل سنة ولا أقل ولا أكثر لم تصدق ذلك ولم تدركه . ولو قلت لك : إني رأيت مدينة ليست في شمال ولا جنوب ولا سهل ولا جبل ولا هواء ولا هي في مكان ، رددت ذلك وكذبته ، لأن الزمان والمكان ركنا العقل لا يقوم إلا عليهما . وبديهي أن ما اتصل بذات الله لا يخضع للزمان والمكان ، ولا يطلق عليه متى وأين ... ولذلك يعجز العقل عن إدراك أي شيء يتصل بالله عز وجل وصفاته ، ولا يستطيع أن يعرف عنها شيئاً بلا معونة من الخارج .

ثم إن العقل محدود ، فلو قلت لك : إن خطاً أبيض يمتد في الظلام ليس له آخر ، وأردت أن تفكر في هذا الخط ، وتجمع في إدراكه عقلك ، لعجزت عن إدراكه وشعرت بأن عقلك ينازعك منازعة شديدة إلى وضع آخر له ، ويميل إلى قطعه وإدراك نهايته . ولو قلت لك : إن المؤمن خالد في الجنة دائماً دائماً دائماً . . . وفكرت في ذلك لأحسست من عقلك ميلاً قوياً إلى وضع حد لهذا الدوام . ويتجلى هذا الميل في الرياضيات العالية التي فرضت اللانهاية نقطة وجعلت منها (+ ∞) لانهاية موجبة ، و(− ∞) لانهاية سالبة . . .

فاذا كان العقل محدوداً ، فكيف يحيط بالله وهو عز وجل غير محدود ؟ هل يمكن أن تضع بغداد في غرفتك ؟ لا . ولله المثل الأعلى !

الوحي :

بَيّن لك من هذا ضرورة الوحي ، والوحي ضرورة عقلية وضرورة عملية .

أما ضرورته العقلية فما رأينا من عجز العقل عن إدراك ماوراء المادة ، وعن معرفة الله ، فلم يكن بد من إتمام نقص العقل بعلم من الخارج ، وهذا هو الوحي .

فالوحي علم خارجي يصل إليه العقل بالسماع والتعلم ، كما أن المعارف المعقولة علم داخلي يصل إليه العقل بالادراك والتفكير ، وكلاهما من الله . لذلك لا يمكن أن يكون بينهما تناقض مطلقاً ، لأن الله عز وجل مبدع حكيم ؛ ومن شروط حكمة المبدع ألا يكون فيما يبدعه تناقض ، فالدين الصحيح (أعني الوحي) والعقل السليم متفقان في المبدأ ، متعاونان على بلوغ الغاية ، لا يقوم أحدهما إلا بالآخر . فلابد للوحي من عقل يدركه ويؤمن به ، ولابد للعقل من وحي يكمل نقصه ، ويمكنه من إدراك ما لا يستقل بادراكه منفرداً . وليس معنى هذا أن العقل يستطيع إدراك كل ماجاء به الوحي ، لأنه لو كان هذا لما كان للوحي من حاجة ، ولكن معناه أن الوحي لا يناقض العقل ، ولا يوجب مايحيله ، أو يحيل مايوجبه

وأما ضرورته العملية فهي أن الفضيلة والعدالة لا تقومان في الأرض إلا بقيام الدين . وبيان ذلك ان الانسان مسوق أبداً في حياته بالنقمة الخاصة ، لا يعمل عملا إلا إذا كان له فيه فائدة أو لذة ؛ وعبثاً تحاول حين تحاول أن تجد عملا واحداً يعمله امرؤ لمنفعة غيره فقط ... ولست بحاجة إلى سرد أمثلة من لاروشفوكلد فقد نشرت عنه الرسالة فصلا ممتعاً في عدد من أعدادها الماضية لا أذكر رقمه تستطيع أن تفتش عنه وترجع إليه ، ولكن أسأل القارىء وآمل أن يجيب بانصاف : هل يتصور رجلا ملحداً (لا يؤمن بالله واليوم الآخر) فقيراً جائعاً ليس معه إلا قرش واحد لعشائه يضع هذا القرش في صندوق الطيران الوطني أو صندوق جمعية خيرية من غير أن يراه أحد ، ثم لا يخبر بذلك أحداً ولا يرجو (بالطبع) ثواب الله ، وإنما وضعه حباً للآخرين ؟ أو يتصور طالباً رأى ورقة جاره في الامتحان تستحق الرسوب فضحى بنفسه من أجله فوضع اسمه على ورقته ، ورضي بأن يرسب هو لينجح ذاك ، واحتمل لوم أهله وتأنيب أصحابه ، و يخبرهم ولم يخبر ذلك الطالب بما فعل ، ولم يرج عليه ثواباً من الله وإنما فعله حباً للآخرين ؟

قد يفعل ذلك إذا كان عاشقاً ؛ غير أن العشق أبعد شيء عن حب الآخرين ، بل هو الأنانية بأفظع أشكالها . فأنت لا تحب مطلقاً شخص المحبوب ، وإنما تحب لذتك فيه : تحب نفسك ولو ضاعت هذه اللذة ، بأن فقد المحبوب جماله بمرض مشوه أو بذل نفسه لغيرك لأقلعت عن حبه ، بل لكرهته أشد الكراهية والحب العذري خرافة ليس هذا موضع الكلام في بطلانها .

فمن هو إذن الذي يضع قرشه في الصندوق وينام جائعاً ، ويؤثر على نفسه ولو كان به خصاصة ؟ هو المؤمن بالله واليوم الآخر

لأنه أسمى من البشر فهو خارج عن النواميس النفسية ، والمبادئ عامة ؛ بل لأنه يشتري لذة كبرى بلذة صغرى ، فهي أيضاً انية . . . يبذل قرشه هذا ليأخذه في الآخرة أضعافاً مضاعفة ، يضحي بحياته هذه القصيرة الشقية لينال حياة طويلة سعيدة ي الجنة . . . فالضحية إذن لاتكون إلا ثمرة للدين ، اى للوحي .

ولنعرض المسألة بشكل أوضح : لو محى الدين من الأرض ل تكفي القوانين والأخلاق الوضعية لضمان الفضيلة والعدالة ؟ ا الأخلاق فليس لها مؤيد عملي ، وأما القوانين فتؤيدها القوة ، لقانون معناه الشرطي . فاذا سرق اللص ولم يره أحد ، ولم يقدر ليه الشرطي ، فسرقته جائزة عملا وإن لم تجز نظريا . وإذا قتل قاتل ولم يشهد جريمته أحد فجريمته جائزة وهو غير مسئول ام القانون . ونتيجة ذلك ان الجرائم تنتشر ويستعمل الناس ذكاءهم مواهبهم في ابتكار الحيل للفرار من القانون كما نرى اليوم في ض بلدان الغرب التي تستغل فيها العلوم والفنون للسرقة والغش الاحتيال ، في حين أن الدين يؤيده اتباعه ، وضامنه فيه . لمتدين لايستطيع أن يسرق او يقتل ولو لم يره احد ، لعلمه ان له يراه ، ويطلع عليه ، وهذه اقوى وسيلة لنشر الفضيلة :

لاتنتهي الأنفس عن غيّها ما لم يكن منها لها زاجر

فكرة الإله

وهناك فائدة أخرى للدين : هي الاطمئنان الذي يحس به ؤمن حيال النكبات والمصائب ؛ فبينما نري غير المؤمن مقبلاً على لانتحار ، يائساً قانطا ، نجد المؤمن راضيا بقضاء الله مستسلما به . وقد يفهم من هذه الفائدة أن الدين فطرة في الانسان على عد قول دوركايم : الانسان حيوان ذو دين وأكبر الأدلة على لك فكرة الإله . فالاعتقاد بوجود إلـه ازلي خالد قوى خير عادل وجود مع الانسان منذ وجد الانسان . وليس من حاجة لاقامة لأدلة العقلية على وجود الله ، كما أنه لا حاجة للتدليل على أن لجزء أصغر من الكل ، لأنهما من البديهيات

وبيان ذلك أن الانسان لما بدأ يفكر نظر في نفسه فوجد بها مبادىء لا يد له فيها ، ولا يدري من أين جاءته ولا يعرف ليها دليلا واحداً ، وجد أن الذي هو هو .

الماء هو الماء ، ليس الماء ورقة ولا شجرة ولا قطعة ولكنه ماء . . . والأرض هي الأرض . هذه بديهية ثابتة لا يستطيع العقل أن ينكرها مهما اختلفت الأعصار والأمصار ، فما هو الدليل عليها ؟

ما هو الدليل على أن الجزء أصغر من الكل ، وأن وجود الشيء ذاته في الوقت عينه وانعدام هذا الشيء مستحيل . إن التدليل على أمر معناه رد هذا الأمر إلى بديهية ثابتة . فكيف ندلل على البديهية وإلام نردها ؟

وكيف يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل ؟

ومثل هذه البديهيات تماماً الاعتقاد بوجود إلـه ، بدليل أن البشرية لم تعش يوماً واحداً بغير هذا الاعتقاد وإن اختلفت المدارك فعرف بعض الناس الالـه الحقيقي الذي لا تدركه الأبصار ، وألصق بعضهم صفة الالـه ببعض المخلوقات ثم عبدها لا لذاتها بل لأن فكرته عن الالـه تمثلت له فيها — وقد يعترض على معترض بأن في الشبان اليوم من ينكر الالـه ولا يقر بوجوده فأجيب بأن هذا الشاب لو ضاع في صحراء ويئس من المعونة أو أصابه مرض عضال عجز عنه الأطباء لعاد مؤمناً بالله ، ولآب إلى الله مقراً مستغفراً . فالايمان لم يذهب من نفسه وإنما غطته عوارض زائلة . وذلك قريب من قول السيدة رابعة العدوية وقد خبروها أن (فلاناً) من العلماء أقام ألف دليل على وجود الله . فقالت لو لم يكن عنده ألف شك لما أقام ألف دليل ! قيل لها : فما هو إذن ؟ قالت من ضاع في الصحراء وانقطع ماذا يقول ؟ قالوا يقول : يا ألله ! قالت : ذاك هو الله . وقول أناتول فرانس : إن كذا غراماً من السكر في بول أشد الناس إلحاداً ترده مؤمناً . يريد أنه لو أصيب بمرض ويئس من الحياة .

* * *

فاذا عرفت يا سيدي قيمة الحواس ، وحدود الخيال ، وطاقة العقل ، وفائدة الايمان ، كنت أنت الذي يجاوب على ما بعثت لي به من أسئلة . والسلام عليك ورحمة الله .

« دمشق »

علي الطنطاوي
مدرس الأدب العربي
في الكلية الشرعية ببيروت